أولاد النحال يصونون هيبتهم ..

لم يرتح أمير إلى وجود هؤلاء الضيوف الذين يفدون كل أصيل إلى منزلهم فيحتلون مصطبته الأمامية، وتمتد بهم جلستهم حتى قرب منتصف الليل.

ولم يرتح أكثر عندما حضر معهم ذات مرة فاروق ابن أكبر عمدة فى المنطقة وهو يصطحب معه كلبه الأسود المخيف، ثم تتابع حضوره فتتابعت خلفه أفواج جديدة لضيوف جدد كل مرة، ثم تبين لأمير أن نصف هؤلاء ينتقلون من مصطبة دار الهنادوة؛ حيث يستضيفهم فريد هنيدى إلى مصطبتهم.

قال لنفسه إن «فريد» يقدم لضيوفه مشاركتين: واحدة تتعلق بالتمارين الرياضية، والثانية تتعلق بتربية الأرانب.. ولكن: ما الذى يقدمه السيد لكل هؤلاء سوى أدوار الشاى المتعددة؟ وساءه أن تتولى شقيقاته: رابحة، وسعيدة، وفايزة، وفرحانة، مهمة تقديم الشاى دون أن يلحظن نظرات غزل بها كلمات إطراء يقدمها بعض شباب هؤلاء الضيوف. أما وأن السيد لا يلحظ ذلك فتلك هى المصيبة.

سارع أمير فوضع أمام بدير كل همومه واعتراضاته على هذا التجمع الذى لم يجد له تفسيرًا.. ورغم أن «بدير» لم يشهد هذا المنظر لكنه فهم مغزاه عندما عرف أن فاروق بن العمدة يتصدر هذه الجلسات.

«إذن، فالسيد الجسور استقطب «فاروق» ومن معه فى ترويج حشيشه»

ولما هوّن بدير من هذا الأمر أمام أمير فادعى أنهم يجتمعون عند السيد لسماع أشعاره

وتبادل الكتب معه صمت أمير على غير اقتناع، وازداد سقوطه فى بئر الحيرة؛ لأنه لم يسمع زبائن المصطبة يقتربون من الشعر، ولم يشاهد كتابًا فى يد أحدهم.

وتدريجيًّا انقطع سيل الأصدقاء وهجروا مصطبتهم.. ففهم أمير أن بلاغه لبدير أتى بثمرته، وأن ما يبدو من وضع جديد معناه أن «بدير» أجبر السيد على وقف هذه السهرات.

وتعجب أمير من ذلك الخضوع الجديد.. خضوع السيد لبدير.. ما هو سره وما هى أسبابه؟

انكفأ أمير على نفسه وقد ازدادت حيرته، ثم زاد هذا الانكفاء عندما تجاورت الحيرة مع الخوف الشديد من انتقام السيد.. فهذا التأفف الذى لا يواجهه إلا به ليس له إلا معنى واحد يعرفه أمير.. ولذا فقد بات ينتظر: أين ومتى وكيف ستأته الضربة المنتظرة من أخيه صاحب الساعد الشهير فى جز أعواد القصب؟

ولم يجد سوى الاستسلام وهو ينتظر مصيره:

«فالسيد كالحية الرقطاء التى تكمن لغريمها فى الخفاء ثم تلدغه»

هكذا قال أمير لنفسه وهو يرى أثر خسارة السيد لبهجة لقاءات العصارى اليومية مع أصدقاء المصطبة.

وفجأة عدل السيد عن فكرة الانتقام من أمير، بل إنه نسى هذه المسألة تمامًا عندما صار أمير نفسه مطلوبًا فى التكاتف معه للقيام بحملة تأديب ينالان فيها من جوهر البقال وزوجته صبيحة، ذلك أن جوهر البقال الذى يفرش بضاعته من المأكولات والمشروبات أمام باب المدرسة الابتدائية ومعه زوجته تعديا بالضرب على عرفة الصغير عندما ضبطاه متلبسًا بسرقة فحل بطاطا فى زحمة تجمع التلاميذ حولهما..

الولد عرفة اعترف للسيد بصحة الواقعة بعدما فضحته الجروح الدامية التى ألمت بوجهه ولم يكن باستطاعته تأليف واقعة أخرى عندما سأله السيد عن سبب هذه الجروح، بل لقد اعترف ـ وكأنه يندب حظه ـ أنه تعود على الإفلات كثيرًا بمثل هذه السرقة عدا

هذا اليوم الذى ضبطته فيه صبيحة.

وبدا أن هذه المهانة الجديدة التى لحقت بعائلة عباس عبد المحسن إبراهيم النحال فى شكل ولد من أولاده توافقت مع محاولة السيد إضفاء روح العزة على مصطبتهم الجرداء وإيهام نفسه ثم الناس من حوله أنه أعاد إلى منزلهم بعض عزه الغابر وألقه الذى كان أيام جده الحاج عبد المحسن.

يومها جلس يندب حظهم العاثر وتورطهم الطويل فى انتظار رزق لا يجىء، فالحاجة وضيق ذات اليد والجوع يجبرون صاحبهم أن ينظر إلى ما بأيدى الناس.. وقد يحرضه إلى خطف ما بهذه الأيدى.. وعرفة لم يفعل سوى أنه استجاب لكل هذه الدوافع، وعرفة شأنه شأن باقى إخوته لا يعرفون المصروف اليومى، وعرفة لا يعلم أن «بدير» ترك المدرسة دون ندم عندما سقط فى شيئين: اليأس والمهانة.. اليأس من اعتدال الحال، والمهانة التى قابلها عند باب أحد المساجد ذات يوم تعرّف فيه على شحاذ ملثم.. تعرف عليه من جلبابه الكالح وحذائه الممزق ووجد أنه أبوه.

«وها نحن أسلمنا أقدامنا إلى سلم الهلاك والخسارة بكل يسر وسهولة ولم نجد سوى سوق الحشيش.. فهل هو سوق المطرودين من جنة النعمة الهانئة، أم الراغبين فى نار المكسب الهنىء؟»

وتخلى السيد النحال عن حواره الصامت مع نفسه فراح يتحدث معها بصوت عال وهو يشعل سيجارة من سيجارة، فجرفته ذاكرة المهانة إلى استرجاع أحداثها الأليمة يوم أن ضبطوا أباه يسرق القمح من غيط المصلحة، ثم وهو يسرق قماش البفط، وتذكر حوادث أمير الذى نال علقة ساخنة من فريق كرة بكامل أفراده عندما سرق حلواهم، وعلقة أخرى من إخوة زميله قتيل السيارة زكريا مسعود لأنه جمع كتب زكريا من بين دمائه وأخذها لنفسه، ثم تذكر حادثة عرفه الجسور الذى عثر على شبكة صياد مليئة بالسمك فى قاع الترعة فانتزعها بمهارة وأتى بحصيلتها من السمك وكانت حصيلة تنبئ كثرتها أنها مسروقة، ومع هذا فقد أثنى عليه والده مرسلًا إليه آهة تعجب مثيرة **«كيف أتيت بسنارتك بهذه الشيكارة المليئة بالسمك، عجلى يا أم الخير بشى هذا السمك..**

عجلوا يا بنات..» ولم يفهموا أن سرّ التعجل هو أن راعى المنزل كان واثقًا أن صاحب السمك سوف يجيء.. وقد أتى الرجل فلم يجد من سمكه إلا بقايا عظام قوامها تلة عالية فى منتصف الطبلية.. ثم أتى الناس على صياحه فاقتربوا متزاحمين ليروا بأنفسهم جسم الجريمة.. وانعقدت لعباس النحال فضيحة جديدة لحقت بسابقاتها فى ذاكرة القرية.. ولم ينفض الجمع الضاحك ويفر الرجل الغاضب إلا أمام عصا السيد النحال المجنون وشتائمه المقذعة.

سمعته أمه يقول:

ـ «إلى متى سنظل «ملطشة» البنى آدمين.. بما فيهم جوهر البقال الذى يخاف من ظله؟»

ثم سمعته يقول: «وبدير لم يفهم قيمة الضيوف الذين يجتمعون معى على المصطبة؛ لأنه لم ير الناس وهم ينزلون من فوق حميرهم احترامًا لنا.. حتى هذا الاحترام استخسره فى بيت النحال الموصوم بقلة القيمة..»

قالت له أمه: «لسنا بحاجة إلى من ينزلون من فوق حميرهم احترامًا لنا.. بدير عندك حق.. بيتنا به أربع بنات .. كفاية الفقر علينا.. لسنا بحاجة إلى فضائح حتى لا يكون فقرًا وفضائح»

لم يرد عليها لكنه قال لإخوته أن يستعدوا للذهاب معه إلى جوهر البقال وزوجته لتكسير دكانهما أولًا وعظامهما ثانيًا.. وأخرج من جيبه ثلاث قطع حشيش ملفوفة فى لسيلوفان ونادى على عرفه:

ـ «هذا الحشيش سوف تدسه فى سيالة جوهر وأنت تشتبك معه.. أنت أول من سيقذفه بالحجارة وتمسك به.. إياك أن يحس بك وأنت تدس له الحشيش.. سأغيب ساعة بالمدينة وأعود إليكم.. سنهجم عليهم كلنا.. نحن التسعة.. حتى البنات.. سأجرهما إلى مركز الشرطة الليلة: جوهر وصبيحة.. البلد لازم تعرف أن أولاد النحال لحمهم مر.. من اليوم كل واحد يقف عند حده.. »

وشاهد أهل البلد بعد ساعة واحدة معركة ضارية بين أولاد النحال وأولاد جوهر البقال، وشهدت الساحة فيما بين دكانيْ جوهر وخميسة ازدحامًا كيوم المولد توقفت بسببه السيارات التى تخترق البلد مرورًا بهذه الساحة.. وسقط جوهر غارقًا فى دمائه.. وبعده زوجته صبيحة.. وهرب أولادهما وقد تركوا خلفهم دكانًا محطمًا وأبوين مضرجين بالدماء.. فلم يكن فى ظنهم أن السيد ابن عياس النحال هذا مجرم إلى هذا الحد، وعنيف إلى هذه الدرجة، حتى أن عصاته طالت كلّ من تدخل لاحتجازه ـ رجلًا كان أو امرأة ـ ولم تتوقف الحملة إلا بعد أن خلت الساحة من أحد الخصمين.. ولم يجد أولاد النحال أمامهم من يواصلون تأديبه.. وبأمر من السيد انصرفت البنات إلى المنزل وتحرك الأولاد معه إلى دوار العمدة تمهيدًا لتحويلهم إلى مركز الشرطة.

وفى المركز وأثناء التحقيق مال أحد المخبرين على أذن الضابط الشاب بهمسة.. ووضح للواقفين أنها همسة تتعلق بجوهر البقال الذى يقف أمام الضابط مكسورًا ومهانًا وملفوف الرأس بعمامة من الشاش الأبيض 'لمخضب بالدماء.

بادر الضابط فوجه إليه نظرة مباغتة، وهتف به:

ـ «أنت تبيع المأكولات للتلاميذ أمام باب المدرسة.. أليس كذلك؟»

ـ «بلى يا فندم..»

ـ «وماذا تبيع للمدرسين والموظفين..؟»

ـ «ما يطلبونه..»

ـ «وإذا طلبوا حشيشًا..؟»

تلجلج جوهر البقال متسائلًا:

ـ «حشيش..؟»

ـ «أجل الحشيش.. الذى لا يخلو منه جيبك.. فتش هذا الرجل»

واستجاب الجندى للأمر الصادر إليه توًّا، فأتى بكل ما فى جيوب المذكور ووضعها أمام ضابطه.. مفاتيح.. سجائر.. كبريت.. منديل.. حبات نعناع.. ثلاث قطع سيلوفان

بداخلها أجسام بنية اللون فى حجم عقلة الإصبع. فهتف الضابط وهو يمسك بها:

ـ «هذا هو. ألم تتذكر أن تتخلص من بضاعتك وأنت منهمك فى الشجار؟. غبى.. أو: فاجر»

مدّ جوهر راحتيه متوسلًا وهو يرسل نظراته إلى المخبر فى بلاهة:

ـ «هذا الشىء لم يكن فى جيبى.. من أين أتيتم به؟.. والله..»

لم يدعه الضابط يكمل قسمه:

ـ «تقصد أننا دسسناه لك؟. ألم أقل إنك فاجر؟. افتح يا بنى محضرًا جديدًا»

* * *

وامتلأت المصاطب بالخبر العجيب عن مصيبة جوهر البقال.. كما امتلأت معها تجمعات الناس أمام دكان خميسة.. وعند مصلى ترعة وجه البلد وفى دكان حلاقة الأسطى زين الدين.. وفى دوار العمدة.. وكلهم أجمعوا أن هذه المصيبة ملعوب السيد النحال.. فجوهر لم يلمس فى حياته قطعة حشيش ولو على سبيل الفضول.. فكيف يحتفظ فى جيبه بل ويدخل به قسم الشرطة؟.. وسرعان ما تحولوا عن إسداء الشفقة لجوهر المسكين وانصرفوا إلى إبداء الدهشة لهذا الفعل المذهل الذى لا يقوم به سوى واحد من أبناء عباس النحال.. واحد هو بالتأكيد الولد الطويل العصبى الذى يكتب الأغانى ويفوز فى رهانات القصب..

الولد الذى اسمه: السيد «اللى مبلّط فى مدرسة الصنايع من سنين»